ركن الطلاب

خدمة الحديث النبوي في القرن الثالث

حسن البناء عبد الغفور
السنة الثانية للفضيلة
الجامعة السلفية، بنارس

بين يدي المقال

الحمد لله الذي أنزل القرآن، نورا وهداية للإنس والجان، وبعث رسوله برسالة الرحمة والأمان، لينقذ البشرية من عواقب الذل والهوان، وبعد:

فإن السنة النبوية –على صاحبها أزكى صلاة وسلام– التي هي عبارة عن أقواله –عليه السلام– وأفعاله وتقاريره التي أقر عليها صحابته الكرام –رضي الله عنهم– تحتل مكانة غير مدفوعة، ومنزلة لا يستهان بها، وذلك أنها تكاشف الناس بحوايا القرآن وخباياه، وتفصل إجماله، وتقيد إطلاقه، حتى يكونوا منه على بصيرة، ويهتدوا إلى محجة بيضاء ليلها كنهارها، ومن هنا نهض المحدثون –من أشرف البرية علما– إلى خدمة هذه المجموعة الطيبة من لآلي النبي صلى الله عليه وسلم رواية ودراية وكتابة وتدوينا ودفاعا، وشمروا عن ساعد الجد لأداء هذه الأمانة العظيمة.

قال ابن الجوزي: "ولما لم يمكن أحدا أن يدخل في القرآن شيئا ليس منه أخذ أقوام يزيدون في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقصون ويبدلون ويضعون عليه ما لم يقل، فأنشأ الله –عز وجل– علماء يذبون عن النقل، ويوضحون الصحيح ويفضحون القبيح".[١] وقال عليه السلام: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين".[٢]

ونقل ابن الجوزي عن الدار قطني أنه قال: "يا أهل بغداد لا تظنون أن أحدا يقدر يكذب على رسول الله وأناحي"، وعن ابن المبارك أنه قيل له: هذه الأحاديث المصنوعة، فقال: "تعيش لها الجهابذة"، وعن سفيان: "ما ستر الله عز وجل أحدا يكذب في الحديث".[٣]

فبأمثال هؤلاء الأعلام تكفل الله جل شأنه بحفظ السنة النبوية إلى يوم يبعثون، وقد حاولت في مقالي هذا إلقاء بعض الضوء على ما بذل المحدثون الأعلام –رحمهم الله– من جهود

---

[١] الموضوعات لابن الجوزي ١/١٠.
[٢] الترمذي: ٥٩٧.
[٣] الموضوعات لابن الجوزي ١/٢١ و٢٣.

مشكورة في سبيل خدمة السنة النبوية في القرن الثالث الذهبي حتى سلموها إلى من بعدهم نقية طرية كما كانت.

ما هي خدمة الحديث النبوي؟

إن خدمة السنة النبوية تعني حفظها صدرا أو كتابا وروايتها وإزالة الشوائب واللوثات عنها، وصيانتها من القواصم التي تهدد كيانها في كل عصر وزمان، ومجابهة من حاول التشكيك فيها بأوهى الشبهات، حتى لا يبقى على وجهها البراق عوار ولا غبار، وشرح معانيها واستخراج المسائل منها، كي يتأسى الناس بأسوة نبيهم عليه الصلاة والسلام على هدى ونور وبصيرة، والا يتمار بأوامرها والاحتراس عن زواجرها.

وقد قام المحدثون بكل هذا وذاك بربانية ومصداقية، فأهدوا إلى الأمة الإسلامية مجموعة قيمة من الأسفار الضخام التي خدمت السنة النبوية من كافة النواحي التي أسلفتها، والكتب الستة، وكتب الجرح والتعديل، وكتب الضعفاء، وكتب الموضوعات، والمسانيد، والمعاجم، والسنن، والأجزاء، وكتب مصطلح الحديث، وكتب الدفاع عن السنة، وما إلى ذلك من الأسفار الخطيرة التي أُلّفت خدمة للسنة المطهرة، هذه الأسفار أنصع وأقوى دليل يبرهن على ماسلف، وفي الوقت نفسه كانوا أسوة صالحة لمن اقتدى بهم علما وعملا، كأن السنة قد ارتسمت في تحركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وتصرفاتهم.

قال المروزي: قال لي أحمد: "ما كتبت حديثا إلا وقد عملت به، حتى مر بي أن النبي احتجم وأعطى أبا طيبة دينارا، فأعطيت الحجات دينارا حين احتجمت".[١]

ومن أسعد بحظه ممن وفق –بإذن الله– إلى هذه النعمة العظيمة، وجعل نفسه في زمرة أولئك الذين حفظ الله بهم ذكره الميمون ووحيه المصون وسنة نبيه المطهرة على صاحبها ألف ألف صلاة وتحية (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[٢] قال ابن كثير: "ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل.[٣] والحديث النبوي يدخل في هذا التقرير إذ هو شرح له، وفصل لمجملاته، قال الشافعي: "وكل شيء منها بيان في كتاب الله، فكل من قبل عن الله فرائضه في كتابه، قبل عن رسول الله سننه، لفرض الله طاعة رسوله على خلقه، وأن

---

[١] المسند١/٨٢–٨٣.

[٢] النحل:٩.

[٣] ابن كثير.

ينتهوا إلى حكمه، ومن قبل عن رسول الله فعن الله قبل، لما افترض الله من طاعته".[١] فدخلت السنة في الذكر إذ هي شرح له، واستطراد في بيانه.

فضل من نهض بهذا العمل الجليل:

سمع الصحابة من رسول الله وسمع منهم تابعوهم وسمع منهم أتباعهم وتسلسل ذلك إلى عصر التدوين وإلى يومنا هذا، وبذلك يتلقى جيل شرعة ربه عن آخر، ولا يزال إلى نفخة الصعق إن شاء الله، وهل هناك عمل أفضل وأقبل من هذا النشاط الجليل. قال عليه السلام: "تسمعون، ويسمع منكم، ويسمع ممن يسمع منكم".[٢] وقال عليه السلام: "نضر الله امرءا سمع منا حديثا، فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه".[٣]

كيف كان بدء التدوين؟

مر كتابة الحديث بالعديد من المراحل: فقد نهى عليه السلام في بداية الأمر عن الكتابة إطلاقا، خوفا على الناس من انشغالهم بذلك عن كتاب الله: "لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه".[٤] ولم يسمح بذلك إلا لعبد الله بن عمرو حين قال: "اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق".[٥] ولأبي شاه، روي عن أبي هريرة أنه لما فتح الله على رسوله مكة قام وخطب في الناس، فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه، فقال: يا رسول الله! اكتب لي، فقال: "اكتبوا له".[٦] وقال أبو عبد الرحمن (عبد الله بن أحمد): "ليس يروى في كتابة الحديث شيء أصح من هذا الحديث"[٧] وقد اشتهرت لعبد الله بن عمرو صحيفته بـ"الصحيفة الصادقة" تضم ألف حديث.[٨] وهي وثيقة علمية تاريخية تثبت كتابة الحديث بين يديه عليه السلام وبإذنه.[٩] وبذلك عمت السماحة الجميع فيما بعد، بعد أن كانت خالصة لابن عمرو وأبي شاه، وكذلك استمرت الكتابة على قدم وساق حتى بداية القرن الثاني الذي بدأ فيه التصنيف على الأبواب ولم يزل إلى أن طلع "القرن الثالث الذهبي"، وهو عصر التدوين، أصبح كل نوع من أنواع الحديث علما خاصا مثل علم

---

[١] الرسالة ص: ٣٣.
[٢] الصحيحة: ١٧٨٤.
[٣] أبو داود: ٣٦٦٠.
[٤] صحيح مسلم مع النووي.
[٥] ...
[٦] فتح الباري ١/٢١٧.
[٧] المسند ١٢/٢٣٥.
[٨] أسد الغابة ٣/٢٣٣.
[٩] السنة قبل التدوين ص: ٣٥.

الحديث الصحيح، وعلم المرسل، وعلم الأسماء والكنى، وهكذا.[١] وحول هذا القرن الميمون أنا أتكلم في هذا المقال، والله ولي التوفيق.

إن القرن الثالث اختص بميزة خلت عنها القرون التي قبلها، فهو الذي تم فيه تدوين السنة النبوية، ولم يبق بعد ذلك إلا الاستدراك والاستخراج والتهذيب والتنقيح، والشرح والإيضاح.

أما السبيل إلى التعرف على الجهود المحمومة التي أفرغها المحدثون الكرام في هذا القرن المبارك بالنسبة إلى الحديث النبوي فيبرز لنا جليا لدى نظرة استشرافية على حياة أولئك الذين عاشوا فيه من أهل الحديث، ولا أكثر إذا قلت: إن غالبية الخدمات التي حظيت بها السنة المزكاة شهدها القرن الثالث، ومن ثم سموه بـ "العصر الذهبي"، فهذه الكتب الستة التي سدَّ صيتها الآفاق لم يتم إخراجها الا في هذا القرن المجدود، فأسطر فيما يلي تراجم بعض منهم، تظهر من خلالها جهودهم في هذا الخصوص.

الإمام البخاري وصحيحه:

ولد الحافظ الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ببلدة "بخارى" سنة ١٩٤هـ، وبدأ يحفظ الحديث وهو في الكُتّاب، قال محمد بن أبي حاتم الوراق: قلت لأبي عبد الله: كيف كان بدء أمرك في طلب الحديث؟ قال: الهمت حفظ الحديث وأنا في الكتّاب، قال: وكم أتى عليك إذ ذاك؟ فقال: عشر سنين أو أقل، فلما طعنت في ست عشرة سنة حفظت كتب ابن المبارك، ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء، ثم خرجت مع أبي وأخي أحمد إلى مكة، فلما حججت رجع أخي، وتخلفت بها في طلب الحديث، فلما طعنت في ثمان عشرة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم، وصنفت كتاب "التاريخ" إذ ذاك عند قبر الرسول صلى الله عليه وسلم في الليالي المقمرة.

قال البخاري: لقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم، أهل الحجاز ومكة، والمدينة، والكوفة، والبصرة، وواسط، وبغداد، والشام، ومصر، ولقيتهم كرات، قرنا بعد قرن، ثم قرنا بعد قرن، أدركتهم وهو متوافرون أكثر من ست وأربعين سنة، أهل الشام، ومصر والجزيرة مرتين، وبالبصرة أربع مرات في سنين ذوي عدد، وبالحجاز ستة أعوام، ولا أحصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع محدثي أهل خراسان.[٢]

[١] مقدمة ابن الصلاح ص: ١١.
[٢] تاريخ ابن عساكر ٢٨/٤٣—٤٤.

وقال الخطيب: رحل في طلب العلم إلى سائر محدثي الأمصار، وكتب بخراسان، والجبال، ومدن العراق كلها، وبالحجاز، والشام، ومصر، وورد بغداد دفعات.[١] قال أبو الهيثم الكشميهني: سمعت الفربري يقول: سمعت البخاري يقول: ما وضعت في كتاب الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين، وعنه قال: صنفت الجامع من ستمائة ألف حديث في ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله.[٢]

ومن ميزات صحيحه أنه اتفق الناس على أنه يحتل مكانة تخلف القرآن، وأنه أتى فيه من دقائق الأبواب بما أكره جمعا من الفضلاء أن يقولوا: "فقه البخاري في تراجمه"[٣] توفي سنة ٢٥٦هـ، وقد تجلى بهذا البيان الوجيز مدى جهود هذا العَلم البارز في خدمة السنة النبوية، ولو أحطت بكافة النواحي لطال المقال وتشرد البال.

الإمام مسلم وصحيحه:

ولد الإمام الفريد حجة الإسلام أبو الحسن القشيري سنة ٢٠٤هـ[٤]، أحد أعلام المحدثين، رجل إلى الحجاز والعراق، والشام، وسمع يحيى بن يحيى النيسابوري، وأحمد، وإسحاق بن راهويه، وعبد الله بن مسلمة وغيرهم، وقدم بغداد غير مرة، فروى عنه أهلها، وآخر قدومه إليها في سنة ٢٥٩هـ، وروى عنه الترمذي، وكان من الثقات المأمونين، قال محمد الماسرجس: سمعت مسلم بن حجاج يقول: "صنف هذا المسند الصحيح من ثلاث مائة ألف حديث"[٥] واعتنى هذا الإمام المبرز والمحدث المميز بتمييز الصحيح من السقيم، والمعوج من القديم إلى مدى يفضي إلى عالم الاندهاش، وإيراده في باكورة صحيحه مجموعة طيبة من الأحاديث والآثار التي تؤكد على التمييز والتنقيح أبرز دليل على ما أسلفت، يمتاز صحيحه بحسن السياق، وجودة الإيراد، وكمال النسق، وجمال التنظيم، ويخلف صحيح البخاري منزلة وعظمة، وبهذا تتجلى غاية عنايته بالحديث النبوي على صاحبه أتم صلاة وسلام، أجزل الله له الجزاء.

الإمام أبو داود وسننه:

ولد الإمام شيخ السنة مقدم الحفاظ أبو داود الأزدي السجستاني محدث البصرة سنة ٢٠٢هـ، ورحل وجمع وصنف وبرع في هذا الشأن، سمع بمكة والكوفة وحران ودمشق ومصر.[٦] وسكن

---

[١] تاريخ بغداد ٢/٤–٥.
[٢] هدي الساري ص: ٧٧٥.
[٣] المصدر السابق: ١٤.
[٤] تذكرة الحفاظ ٢/٥٨٨.
[٥] شذرات الذهب ٢/١٤٤.
[٦] سير أعلام النبلاء ١٣/٢٠٣.

البصرة بعد هلاك الخبيث طاغية الزنج، فنشر بها العلم، وكان يتردد إلى بغداد، قال الخطيب: يقال: إنه صنف كتابه "السنن" قديما، وعرضه على أحمد فاستجاده واستحسنه، وقال الصاغاني وإبراهيم الحربي: لما صنف أبو داود كتاب "السنن": "ألين لأبي داود الحديث، كما ألين لداود عليه السلام الحديد.[١] قال الحاكم: سمعت الزبير بن عبد الله بن موسى، سمعت محمد بن مخلد يقول: كان أبو داود يعني بمذاكرة مائة ألف حديث، ولما صنف "السنن" وقرأه على الناس، صار كتابه لأصحاب الحديث كالمصحف، يتبعونه ولا يخالفونه، وأقر له أهل زمانه بالحفظ والتقدم فيه، قال الحافظ موسى بن هارون: خلق أبو داود في الدنيا للحديث، وفي الآخرة للجنة، وقال الحافظ ابن منده: "الذين خرجوا وميزوا الثابت من المعلول، والخطأ من الصواب أربعة: البخاري ومسلم، ثم أبو داود والنسائي.

وقال الحاكم: أبو داود إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة، سمع بمصر، والحجاز، والشام، والعراقين، وخراسان، وقد كتب بخراسان قبل خروجه إلى العراق، في بلده وهراة، وكتب ببغلان عن قتيبة، وكتب بالري، وكتب بنيسابور، ثم رحل بابنه أبي بكر إلى خراسان.[٢]

وثمة أقوال كثيرة في الثناء على هذا الإمام المبرز، مما يدل على عظمته، ومكانته في هذا الشأن وجهوده الجبارة التي بذلها في مضمار الحديث وجمعه وتدوينه، وتنقيحه، وتمييز صحيحه من دخيله وكان يولي الحيطة والحذر في التحديث أهميتهما اللائقة بهما، يقول: "رأيت خالد بن خداش ولم أسمع منه، ولم أسمع من يوسف الصفار، ولا من ابن الأصبهاني، ولا من عمرو بن حماد، والحديث رزق".[٣]

توفي بالبصرة، يوم الجمعة، منتصف شوال سنة ٢٧٥ رحمه الله تعالى.[٤] ومن ميزات سننه أنه يعقب كل حديث أو أكثر الأحاديث بأمور هامة تتصل بالأسانيد، واشتهرت هذه المواضع من "سننه" بمواضع "قال أبو داود" مما يشيد إلى أهميته وعظم شأنه، فقد سعد هذا الإمام بخدمة الحديث النبوي في القرن الذهبي، وفر الله له الجزاء الذي لا انقطاع له.

الإمام النسائي وسننه:

ولد أبو عبد الرحمن النسائي القاضي الحافظ، أحد الأعلام البارزة سنة ٢١٥هـ، قال أبو بكر الدمياطي للنسائي: ولدتُ في سنة ٢١٤، ففي أي سنة ولدت يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: أشبه أن يكون

---

[١] تهذيب التهذيب ٤/١٧٢.
[٢] سير الأعلام ١٣/٢١٢.
[٣] المصدر السابق ١٣/٢٠٩.
[٤] وفيات الأعيان ٢/٤٠٥.

في ٢١٥، لأن رحلتي الأولى إلى قتيبة كانت في سنة ٢٣٠، أقمت عنده سنة وشهرين.[١] وكان إمام عصره في علم الحديث وسكن مصر، ونشرت تصانيفه بها، وهو أحد الأئمة الأعلام، صنف "السنن" وغيرها من الكتب.[٢] وكان يتيمة عصره في طلب الحديث النبوي أينما كان. قال علي بن آدم الأيتوبي: "كان رحمه الله في عصره في طلب الحديث، وكانت عناية طلاب العلم آنذاك منقطعة في إحياء الحديث وغيره، وكان النسائي من نابهي الطلبة الذين كانت لهم مرحلة طويلة، بدأ بمدن إقليمه خراسان، ثم دخل العراق، والشام والحجاز، والجزيرة ومصر التي جعلها سكناله من بعد – ومما ينبئ عن ولعه بالحديث وروايته وتلقيه – انه لما منعه الحارث بن مسكين عالم مصر وقاضيها من الدخول إليه لأمرما، كان يجيئ، ويقعد خلف الباب، ويسمع. ومن الجدير بالذكر أن رحلته لم تقتصر على أخذ الحديث فقط، بل أخذ كذلك علوم القرآن والقراءة عن أهلها.[٣]

ومما يدل على حيطته وترقبه في تخريج الأحاديث أن أبا القاسم الزنجاني قال: إن لأبي عبد الرحمن في الرجال شرطا أشد من شرط البخاري ومسلم، وكان ابن الحداد كثير الحديث، ولم يحدث عن أحد غير أبي عبد الرحمن النسائي فقط، وقال: "رضيت به حجة بيني وبين الله.[٤] ومن ثم قال شيخنا صفي الرحمن المباركفوري رحمه الله: "وسننه أقل السنن بعد الصحيحين حديثا ضعيفا"[٥] وبهذه الخدمات التي أهداها إلى الحديث النبوي أمسى الإمام كغيره من الأعلام حيا خالدا على ألسن الناس. ومن ميزاته سننه ما ذكرت آنفا من قلة الضعاف فيه، وأن في بعض المواضع منها دقائق الأبواب التي تحتوي على معان جزيلة وإشارات هامة، توفي سنة ٣٠٣هـ، وعنه أحاديث وأخبار لا يسمح ضيق المقال بإيرادها، وقد تبين من خلال السطور السالفة مدى عناية هذا الإمام الفريد بالحديث النبوي، وجهوده الملحوظة في المحافظة عليه، ونفي الأباطيل عنه فجزاه الله خيرا عن جميع المسلمين، وجعل أعماله الفضيلة في ميزان حسناته.

الإمام الترمذي وسننه:

ولد الإمام قدوة الأمة أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي سنة ٢٠٠هـ بمدينة ترمذ، ونشأ فيها وترعرع، أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في علم الحديث، وأحد العلماء الحفاظ الأعلام.

---

[١] تاريخ ابن عساكر ٣/٧١.
[٢] تاريخ ابن عساكر ٣/٧١.
[٣] ذخيرة العقبى ١/١٣–١٤.
[٤] ابن عساكر ٣/٨٢–٨٣.
[٥] إتحاف الكرام ص: ٤٦١.

قال الحافظ: "طاف البلاد، وسمع خلقا من الخراسانيين، والعراقيين، والحجازيين.[١] وذكره ابن حبان في "الثقات" وقال: "كان ممن جمع وصنف، وحفظ وذاكر".[٢]

نصر السنة النبوية بكافة الوسائل التي وجد إليها السبيل، وجمع الأحاديث من شتى أرجاء المعمورة، ثم خاطها في سمط ذهبي، فبرز إلى حيز الوجود جامعه المنيف.

نقل الذهبي عن أبي علي منصور بن عبد الله الخالدي، قال: قال أبو عيسى: صنفت هذا الكتاب فعرضته على علماء الحجاز، والعراق، وخراسان، فرضوا به، ومن كان في بيته هذا الكتاب، فكأنما في بيته نبي يتكلم.[٣]

قال أبو العلا المباركفوري: "فائدة أخرى: اعلم أن الإمام أبا عيسى الترمذي مع إمامته، وجلالته في علوم الحديث، وكونه من أئمة هذا الشأن، متساهل في تصحيح الأحاديث وتحسينها، ثم قال: قلت: عدم اعتمادهم على تصحيح الترمذي وتحسينه، إنما هو إذا تفرد بالتصحيح أو التحسين.[٤]

قلت: لا يغض ذلك من منزلته شيئا، فهو سعيد بخدمة الحديث النبوي، وإن ندت منه بعض الزلات.

ومن ميزات جامعه سرد المذاهب الفقهية في نهاية كل باب، وهو أمر تفرد به عن غيره، والدلالة على مخارج الحديث ومصادره، وهذا أيضا لم يسبقه إليه أحد، واعتبر نواة أساسية لفن التخريج.

توفي بالترمذ سنة ٢٧٨هـ[٥] ما استنزف في مضمار الإخراج والإيراد من أغلى ساعاته، وأقوى طاقاته، وأخذ من هذا العلم العظيم حظوته الموفورة، وساهم في خدمة الحديث رواية ودراية وتحقيقا وتنقيحا واستنباطا واستفادة، جزاه الله أحسن ما يجازي به عباده الصالحين.

الإمام ابن ماجه وسننه:

ولد الحافظ الكبير، والمحدث الشهير بديار القزوين أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه الربعي سنة ٢٠٩هـ وحيي صباه الباكر في هذه البقعة المباركة، ثم جدبه الشوق إلى تلقي

---

[١] مقدمة التحفة ص: ٢٦٧.
[٢] تهذيب الكمال ٣٦/٢٥٢.
[٣] تذكرة الحفاظ ٢/٦٣٤.
[٤] مقدمة التحفة ص: ٢٧٥.
[٥] تهذيب الكمال ٣٦/٢٥٢.

الأحاديث، والاستنارة بأضوائها المستدامة، فتوجه تائقا إلى دمشق وسمع بها حفاظها، ثم إلى مصر، ثم إلى حمص، ثم إلى العراق.[١]

قال أبو يعلى الخليلي: "ابن ماجه ثقة كبير، متفق عليه، محتج به، له معرفة وحفظ، ارتحل إلى العراقين، ومكة، والشام، ومصر، قال الذهبي: "سنن أبي عبد الله كتاب حسن لولا ما كدره أحاديث واهية ليست بالكثيرة".[٢]

قال الذهبي: "وعن ابن ماجه قال: عرضت هذه "السنن" على أبي زرعة الرازي فنظر فيه، وقال: أظن إن وقع في أيدي الناس، تعطلت هذه الجوامع، أو أكثرها، ثم قال: لعل لا يكون فيه تمام ثلاثين حديثا مما في إسناده ضعف أو نحو ذا. وقال: قلت: قد كان ابن ماجه حافظا ناقدا صادقا، واسع العلم.

وإنما غض من رتبة "سننه" ما في الكتاب من المناكير، وقليل من الموضوعات، وقول أبي زرعة –إن صح– فإنما عنى بثلاثين حديثا، الأحاديث المطرحة الساقطة، وأما الأحاديث التي لا تقوم بها حجة، فكثيرة، لعلها نحو الألف."[٣]

قلت: وبالرغم من كل هذا وذاك فسنن ابن ماجه القزويني التي جمعها بكد اليمين، وعرق الجبين محاولة كبيرة محمودة في عصر التدوين الذهبي.

وما سطرت فيما مضى من أنه ارتحل إلى هنا وهناك يطلب الأحاديث، وعناء الأسفار من دار إلى دار معروف في ذلك العهد عصر الأبرار، ففي ذلك مؤشر واضح إلى ما أقول من أنه تحمل التعب واللأواء في اختبان الأحاديث وجمعها والمحافظة عليها لأنه الإسلام، ولا يقلل من شأنه ما تحتوي سننه من مناكير وواهيات لا يصلح عليها الاعتماد، ولا يصح بها الاعتضاد، فإنه أسند وبرئت من العهد ذمته، وندعو الله له ولغيره من أنصار السنة بالخير والظفر والسعادة والهناء في الآخرة.

توفي الإمام يوم الاثنين، ودفن يوم الثلاثاء، لثمان بقين من شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين ومائتين –رحمه الله تعالى– وصلى عليه أخوه أبو بكر.[٤]

فهؤلاء أعلام ستة ساهموا بحظ كبير في خدمة الحديث النبوي، وقدموا إلى أمة الإسلام أسفارا قيمة ذاع صيتها شرقا وغربا، ونزلت من قلوب الناس عامتهم وخاصتهم شعاب الود والتقدير،

---

[١] تاريخ ابن عساكر ١٩٦/٣.
[٢] تذكرة الحفاظ ٦٣٦/٢.
[٣] سير أعلام النبلاء ٢٢٨/١٣–٢٢٩.
[٤] وفيات الأعيان ٢٧٩/٤.

وأخذت منها مآخذ الحب والتبجيل، وعاشوا كلهم في القرن الثالث الذهبي، الأمر الذي يومئ إلى ما بذل في هذا القرن الميمون من الجهود والمحاولات والأوقات والطاقات لخدمة السنة النبوية.

ولخدمة السنة ساحات وميادين ذكرتها في مقتبل المقال، وتسليط الضوء على كلها في مثل هذا المقال أمر لا يطاق، وبما أن ساحة التلقي والحفظ والاختبان والتخزين والصيانة بالقلب أو الكتاب أكثر أهمية، وأسنى منزلة فإني محورت حديثي حولها، وصارحت بجوانب حياة بعض من أعلام المحدثين الذين هم أئمة هذا الشأن، وهذا يسفر لنا عن غاية الجهود التي بذلت، وشدة العناء الذي كوبد في القرن الثالث بوجه خاص.

ولم تنحصر الخدمات الحديثية في هذه النفوس الزكية، بل هنالك سواد عظيم ممن خدم الحديث النبوي وواصل ليله بنهاره في جمع الأحاديث وتخزينها، وتبليغها إلى الناس بأمانة وربانية:

كأبي يعلى أحمد بن علي، صاحب "المسند الكبير"، توفي سنة ٣٠٧هـ، والإمام محمد بن عمرو العقيلي، صاحب "كتاب الضعفاء الكبير"، توفي سنة ٣٢٢هـ، وإمام الجرح والتعديل أبي زرعة عبيد الله بن عبد الكريم الرازي، توفي سنة ٢٦٤هـ، قال الذهبي: كان من أفراد الدهر حفظا وذكاء ودينا وإخلاصا، وعلما وعملا، وأمير المؤمنين في الحديث حافظ نيسابور أبي عبد الله محمد بن يحيى الذهلي، عن أحمد، قال: "ما رأيت أحدا أعلم بحديث الزهري من محمد بن يحيى، مات في ربيع الأول سنة ٢٥٨ هـ، والإمام الحافظ أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، توفي سنة ٢٥٥هـ، يضرب به المثل في الديانة، والحلم، والاجتهاد، والعبادة، وغيرهم كثير، فقس على هذا المنوال، فإنما ذكرت مجرد مثال، ولا أطيق الاستيعاب على أي حال.[١]

ولو ألقي الضوء على رحلات هذه السمات السعيدة في طلب الحديث، ومعاناتهم ومقاساتهم في هذا السير الحثيث، لكان أكثر إيضاحا لجهودهم المضنية، وأحسن تعريفا بأعمالهم الجليلة وإنما اكتفيت بهذا القليل الضئيل، مخافة الإملال والتطويل، واتقاء مزج المطلوب بالدخيل، وعلى الله قصد السبيل، ومنه العون لكل عمل فضيل.

***

[١] أخذت هذه التراجم من اتحاف الكرام ص ٤٦٥–٤٧١.